(٢) تواصل المدرسة الأدبية

ولعل فكرة المدارس الأدبية تزيد موقف التراث أصالةً وعمقاً ، ذلك أنها إنما تنطلق من واقع الحس التراثى على المستوى الجمعى المتسلسل من لدُن أوس بن حجر والطفيل الغنوى وبشامة بن الغدير ، إلى زهير وابنه كعب ، إلى الحطيئة ، إلى هُدبه بن الخشرم وكثيرٌ عزة ، إلى جميل بثينة وذى الرمة ، وغير هؤلاء من شعراء النقائض الأموية ، مما يدل على تنبه القدماء لتلك الضرورة التراثية من ناحية ، وتسليمهم بضرورة صقل الأداة باعتبار ملكيتها الجماعية ، وسياقها المتصل من ناحية أخرى ، وكأن ثمة إيمانا مشتركا لدى القدماء بأن للغة عالمها البشرى العام ، مما لا يحجب مجال للشاعر وفرصته فى استخراج كل ما تستبطنه ذات المبدع فى أعماقها من طاقات إيحائية لا يسهل التعرف عليها إلا من خلال المواهب الخاصة والقدرة على الابتكار ، مما يتبلور فى سياق ذلك التمايز الذى تكشفه الفروق الفردية بين الشعراء في مستويات الإبداع المتباينة .

ومع تطوُّر الحركة الأدبية ، ومع مزيد من تعقُّد ثقافة العصر يسعي فريق من شعرائه المحُدثين إلى تأسيس مدرسة لهم على منهج القدماء ، ينطلق أعضاؤها ومؤسسوها من واقع الثقافة الجديدة المركبة ، فمنذ جاء مسلم بن الوليد راح يحمل لواء مدرسة البديع العباسية ، ويلحق به على نفس المنهج تلميذه أبو تمام ، ويتسلم الراية بعد ذلك أبو الطيب ثم أبو العلاء ، ويقوِّض لها في منتصف الطريق من يتعرض بالدرس التفصيلى لأبعادها ، ويحاول تقويمها من خلال حركة المد التراثى والحداثى ، على نحو ما صنعه عبد الله بن المعتز فى كتابه « البديع». وبذلك بدا التفاعل إيجابياً ونافعاً حول قضية التقليد والإبداع معا ، خاصة إذا ما رأينا الموقف من خلال منطقة التحليل الفنى قبل القفز إلى التقويم ، أو إصدار الأحكام التى قد تجور على التراث ، وهو أوْلى بأن يظل خارج قفص الاتهام ، خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار أن الإبداع يُعد حلقة ضرورية يحيا بها ذلك التراث ، وإلا فَقَد كمًّا كبيرا من حيويته وقدرته على البقاء ، ذلك أن خلود التراث يبدو مرهونا بتلك المحاولات الجادة التى تجدد دماءه ، وتضيف إليه من خلال شعراء العصور المختلفة ، حيث تأخذ من كلٍّ حسب طبيعة ثقافته ، وحجمها وتنوعها ومصادرها ومناهج توظيفها .

وهكذا تردَّد لدى النقاد العرب إيمانهم بضرورة ذلك الانتماء التراثى ضمانا لأصالة